

التحرير والتنوير

فالإضراب الأول قوله تعالى (بل هم عن ذكر ربهم معرضون) وهو ارتقاء من التقرير المجعول للإصلاح إلى التأيس من صلاحهم بأنهم عن ذكر ربهم معرضون فلا يرجى منهم الانتفاع بالقوارع أي آخر السؤال والتقرير وتركهم حتى إذا تورطوا في العذاب عرفوا أن لا كائ لهم .

ثم أضرب إضرابا ثانيا ب (أم) المنقطعة التي هي أخت (بل) مع دلالتها على الاستفهام لقصد التقرير فقال : (أم لهم آلهة تمنعهم من دوننا) أي بل ألهم آلهة والاستفهام إنكار وتقرير أي ما لهم آلهة مانعة لهم من دوننا . وهذا إبطال لمعتقدهم أنهم اتخذوا الأصنام شفعاء .

إلى عائد (يستطيعون) وضمير . معترضة مستأنفة (أنفسهم نصر يستطيعون لا) وجملة A E آلهة أجري عليهم ضمير العقلاء مجازاة لما يجريه العرب في كلامهم . والمعنى : كيف ينصرونهم وهم لا يستطيعون نصر أنفسهم ولا هم يؤيدون من الله بالقبول .

ثم أضرب إضرابا ثالثا انتقل به إلى كشف سبب غرورهم الذي من جهلهم به حسبوا أنفسهم آمنين من أخذ الله إياهم بالعذاب فجراًهم ذلك على الاستهزاء بالوعيد وهو قوله تعالى (بل متعنا هؤلاء وآباءهم) أي فما هم مستمررون فيه من النعمة إنما هو تمتيع وإمهال كما متعنا آباءهم من قبل وكما كان لآبائهم آجال انتهوا إليها كذلك يكون لهؤلاء ولكن الآجال تختلف بحسب ما علم الله من الحكمة في مداها حتى طالت أعمار آياتهم . وهذا تعريض بأن أعمار هؤلاء لا تبلغ أعمار آبائهم وأن الله يحل بهم الهلاك لتكذيبهم إلى أمد علمه .

وقد وجه الخطاب إليهم ابتداء بقوله تعالى (قل من يكلؤكم) ثم أعرض عنهم من طريق الخطاب إلى طريق الغيبة لأن ما وجه إليهم من إنكار أن يكلؤهم أحد من عذاب الله جعلهم أحرىء بالإعراض عنهم كما في قوله تعالى (هو الذي يسيركم في البر والبحر حتى إذا كنتم في الفلك وجرين بهم بريح طيبة وفرحوا بها) الآية في سورة يونس .

و (يصحبون) إما مضارع صحبة إذا خالطه ولازمه والصحة تقتضي النصر والتأييد فيجوز أن يكون الفاعل الذي ناب عنه من أسند إليه الفعل المبني للنائب مرادا به الله تعالى أي لا يصحبهم الله أي لا يؤيدهم ؛ فيكون قوله تعالى (منا) متعلقا ب (يصحبون) على معنى (من) (الاتصالية أي صحبة متصلة بنا بمعنى صحبة متينة . وهذا نفي لما اعتقده المشركون بقولهم (ما نعيدهم إلا ليقربونا إلى الله زلفى) .

ويجوز أن يكون الفاعل المحذوف محذوفا لقصد العموم أي لا يصحبهم صاحب أي لا يجيرهم جار

فإن الجوار يقتضي حماية الجار فيكون قوله تعالى (منا) متعلقا ب (يصحبون) على معنى (من) التي بمعنى (على) كقوله تعالى (فمن ينصرنا من بأسنا إن جاءنا) .
وإما مضارع أصحابه المهموز بمعنى حفظه ومنعه أي من السوء .
والإشارة ب (هؤلاء) لحاضرين في الأذهان وهم كفار قريش .
وقد استقرت أن القرآن إذا ذكرت فيه هذه الإشارة دون وجود مشار إليه في الكلام فهو يعني بها كفار قريش .

(أفلا يرون أنا نأتي الأرض ننقصها من أطرافها أفهم الغالبون [44]) تفريع على إحالتهم نصر المسلمين وعدهم تأخير الوعد به دليلا على تكذيب وقوعه حتى قالوا : (متى هذا الوعد إن كنتم صادقين) تهكما وتكذيبا . فلما أنذرهم بما سيحل بهم في قوله تعالى (لو يعلم الذين كفروا حين لا يكفون عن وجوههم النار) إلى قوله تعالى (ما كانوا به يستهزئون) فرع على ذلك كله استفهاما تعجيبيا من عدم اهتدائهم إلى أمارات اقتران الوعد بالموعود استدلالا على قرب حصول أماراته .

والرؤية علمية وسدت الجملة مسد المفعولين لأنها في تأويل مصدر أي أعجبوا من عدم اهتدائهم إلى نقصان أرضهم من أطرافها وأن ذلك من صنع الله تعالى بتوجه عناية خاصة لكونه غير جار على مقتضى الغالب المعتاد فمن تأمل علم أنه من عجيب صنع الله تعالى . وكفى بذلك دليلا على تصديق الرسول A وعلى صدق ما وعدهم به وعناية ربه به كما دل عليه فعل (نأتي) .

فالإتيان تمثيل بحال الغازي الذي يسعى إلى أرض قوم فيقتل ويأسر كما تقدم في قوله تعالى (فأتى الله بنيانهم من القواعد) .

والتعريف في (الأرض) تعريف العهد أي أرض العرب كما في قوله تعالى في سورة يوسف (فلن أبح الأرض) أي أرض مصر .

والنقصان : تقليل كمية شيء